

القسم الأول

جاذبية الحركات الجماهيرية

obeikandi.com

الفصل الأول
الرغبة في التغيير

obeikandi.com

1

من البدهي أن كثيراً من الذين ينضمون إلى حركة ثورية صاعدة يتطلعون إلى تغيير مفاجئ كبير في أوضاعهم المعيشية.

إن الحركات الثورية، بعبارة أخرى هي أداة واضحة من أدوات التغيير.

إلا أنه من الصحيح أيضاً، وإن لم يكن من البدهي أن الحركات الدينية والقومية يمكن أن تكون، هي الأخرى، وسائل للتغيير.

من الواضح أن نوعاً من الحماسة والانفعال ضروري لتحقيق أي تغيير كبير وسريع. ويستوي أن تجيء هذه الحماسة من توقع ثروات هائلة، أو من الانخراط في حركة جماهيرية. في الولايات المتحدة كانت التغييرات المثيرة منذ الحرب الأهلية تتم في جو مشبع بحماسة أوجدتها الفرص المتاحة للفرد لتحسين وضعه. عندما تتقدم فرص تطوير الذات، أو لا يسمح لها بالعمل كقوة محفزة، يصبح من الضروري إيجاد مصادر بديلة للحماسة إذا كنا بصدد تغييرات أساسية، مثل إيقاف مجتمع نائم وتطويره، أو إدخال إصلاحات جذرية على طبيعة مجتمع ما وأنماط حياته، وإبقاء هذه المصادرة حيّة نشطة.

ومن هنا يمكن النظر إلى كل من الحركات الدينية والثورية والقومية بوصفها معاملاً لتوليد هذه الحماسة العامة.

كانت الحركات الدينية في الماضي وسائل واضحة للتغيير. وما يميز ديناً ما من محافظة إنما يجيء بعد جمود القوى الحيوية التي واكبت ولادته. كانت الحركات الدينية الصاعدة تدعو إلى التغيير الشامل، وإلى التجريب، وكانت منفتحة على آراء وأساليب من كل اتجاه. كان الإسلام عند ظهوره حركة تنظيمية وتحديثية. وشكلت المسيحية تغييراً حضارياً وتحديثياً بين قبائل أوروبا البدائية. كانت الحروب الصليبية ثم حركة الإصلاح البروتستانتية^(*) عوامل رئيسية في هذا العالم الغربي بعد جمود القرون الوسطى.

أما في العصور الحديثة، فقد كانت الحركات الجماهيرية التي استهدفت أحداث تغيير واسع شامل حركات ثورية وقومية، أو حركات تشترك في هاتين الصفتين. كان قيصر روسيا بيتر

(*) بدأت حركة الإصلاح الديني، التي عرفت فيما بعد بالبروتستانتية، سنة 1517م على يد الأستاذ الجامعي والقس الألماني مارتن لوثر (1483 - 1546م) وانتقدت الحركة كثيراً من ممارسات الكنيسة الكاثوليكية، مثل صكوك الغفران، وتقديس مريم العذراء، والاعتقاد بشفاعدة القديسين عند الله. وكانت هناك حركات مماثلة في عدد من الدول الأوروبية، انتهت بنشوء عدة مذاهب بأسماء مختلفة تنضوي جميعها تحت راية البروتستانتية (المترجم).

الكبير^(*) لا يختلف في إخلاصه للمبدأ وقوته وقسوته عن كثير من الزعماء الثوريين والقوميين، إلا أنه فشل في تحقيق هدفه الرئيس، وهو تحويل روسيا إلى دولة غربية، كان سبب فشله أنه لم يستطع أن يبيث في الجماهير الروسية الحماسة التي تمتلك الوجدان، إما لعجزه عن القيام بذلك أو لاعتقاده بعدم أهمية هذا العمل. في ضوء ذلك لا نستغرب إذا وجدنا أن الثوار البلاشفة الذين قضوا على آخر قيصر من أسرة رومانوف^(**) كانوا يشعرون بشيء من الألفة مع بيتر، برغم انتمائه إلى الأسرة المالكة نفسها. وليس من المستبعد أن ينظر التاريخ إلى الثورة البلشفية بوصفها محاولة لتحديث سدس مساحة العالم بقدر ما كانت محاولة لبناء اقتصاد شيوعي.

لقد تحولت الثورتان الفرنسية والروسية إلى حركتين قوميتين، وهذه الحقيقة تدلّ على أن القومية، في العصور الحديثة، أصبحت المصدر الأول لتوليد الحماسة الجماهيرية، كما تدلّ على أنه لا بد من استثمار الفوران القومي إذا أريد للتغييرات الجذرية التي استهدفتها الثورة أن تتحقق.

(*) يعدّ بيتر الكبير (1672 - 1725م) أعظم القياصرة الروس، وقد حكم روسيا سنة 1682م حتى وفاته، وفي عهده تحولت روسيا إلى إمبراطورية وقوة أوربية رئيسة (المترجم).

(**) العائلة القيصرية المالكة التي حكمت روسيا من سنة 1613م إلى سنة 1917م (المترجم).

ومن هنا للمرء أن يتساءل عما إذا كانت الصعوبات التي تواجهها الحكومة العمالية البريطانية الراهنة مرجعها أنها أرادت تغيير الاقتصاد وأسلوب الحياة لقرابة 49 مليون مواطن في جو خالٍ من الانفعال والحماسة. شعر زعماء حزب العمال بالتقزز من الأساليب التي لجأت إليها الحركات الجماهيرية المعاصرة، ولهذا أبقوا حزبهم بعيداً عن الحماسة الثورية، إلا أن الاحتمال ما زال قائماً في أنهم سيلجؤون إلى إثارة التطرف القومي، بحيث «تصبح الاشتراكية قومية، والقومية اشتراكية»⁽¹⁾.

إن نجاح اليابان الأسطوري في التحول إلى دولة حديثة لم يكن ليتحقق لولا روح الصحة في القومية اليابانية. كما أنه من الصحيح «على الأرجح» أن التحديث الذي طال بعض الدول الأوروبية، وعلى الأخص ألمانيا، تسارع بسبب شيوع الغليان القومي. ولنا، بمتابعة الإرهاصات المعاصرة، أن نتوقع أن نهضة آسيا لن تتحقق إلا عبر الحركات القومية. في تركيا كان تصاعد حركة قومية تركية حقيقية سبب نجاح

(1) E. H. Carr, Nationalism And After, (New York: Mac Millan Company, 1945), P.20.

كمال أتاتورك في تحديث الدولة بين عشية وضحاها^(*) أما في مصر، التي لم تعرف حركات جماهيرية، فقد كان التحديث بطيئاً ومتقطعاً برغم أن حكّامها رحبوا، منذ عهد محمد علي بالأفكار الغربية، وعلى الرغم من أن صلاتها بالغرب كانت وثيقة ومتنوعة. والصهيونية تقدم نفسها لأتباعها على أنها تطوير لدولة متخلفة سيحوّل أصحاب الدكاكين الصغيرة إلى زراع وعمال وجنود. ولو استطاع تشانج كاي شيك^(**) أن يبدأ حركة جماهيرية فعلية، أو على الأقل، لو تمكن من الحفاظ على الحماسة القومية التي أشعلها الغزو الياباني، لكان الآن الشخص الذي يطوّر الصين.

(*) بدأ مصطفى كمال أتاتورك (1881 - 1938م) حياته العملية ضابطاً في الجيش العثماني، وأبدى كفاءة عالية قادتته إلى انتصارات عسكرية، أهمها انتصاره على جيش الحلفاء في أعقاب الحرب العالمية الأولى في سنة 1923م أعلن إلغاء الخلافة وأصبح أول رئيس للجمهورية التركية وخلال مدة حكمه تخلص من كل التقاليد العثمانية وحول تركيا إلى علمانية على النسق الأوروبي (المترجم).

(**) رأس تشانج كاي شيك (1887م - 1975م) المجلس العسكري في جمهورية الصين الوطنية، وعند وفاة الزعيم الصيني سن. يات. سن تولّى الزعامة وقاد المقاومة ضد الغزاة اليابانيين، إلا أنه خسر الحرب الأهلية التي اندلعت مع الشيوعيين سنة 1945م، واضطر إلى اللجوء إلى جزيرة تايوان، حيث أقام حكومة منفى. (المترجم).

إلا أن فشله هذا هو الذي مكّن عباقره «القدسنة» أي تحويل أي أهداف عملية إلى قضية مقدّسة، من تحيته جانباً. وليس من الصعب أن نفهم لماذا كان من المتعذر على أمريكا وبريطانيا (أو أي ديمقراطية غربية) أن تقوم بدور بارز في إيقاظ الأمم الآسيوية من تخلفها وجمودها: الديمقراطيات الغربية لا تريد ولا تستطيع لو أرادت إشعال الصحو القومية بين ملايين آسيا. إن إسهام الديمقراطيات الغربية في يقظة الشرق كانت غير مباشرة وغير مقصودة: لقد أثارت النقمة ضد الغرب، وهذه النقمة هي التي تحرك الشرق الآن، بعد قرون من الجمود.

على الرغم من أن الرغبة في التغيير قد لا تكون عميقة وقويّة، من المفيد أن نحلّل هذه الرغبة عسى أن تلقى بعض الضوء على الطريقة التي تعمل بها الحركات الجماهيرية، ومن هنا فسوف يكون سؤالنا اللاحق عن طبيعة الرغبة في التغيير.

2

تكمّن فينا جميعاً نزعة إلى البحث، خارج أنفسنا، عن العوامل التي تصوغ حياتنا، يرتبط النجاح أو الفشل، عادة في أذهاننا بما يدور حولنا. وهكذا ترى أن الأشخاص الراضين

عن أنفسهم يعدّون هذا العالم طيبًا ويحاولون المحافظة عليه،
بينما نجد المحبطين يفضلون التغيير الجذري.

إن النزعة إلى البحث عن أسباب خارج أنفسنا تستمر،
حتى عندما يكون من الواضح أن وضعنا هو نتيجة عوامل
داخلية، كقدرتنا أو شخصيتنا أو مظهرنا أو صحتنا، وهلمّ
جرًا. يقول ثورو^(*): عندما يشكو المرء شيئًا يحول بينه وبين
القيام بواجباته، حتّى عندما يجد ألمًا في أمعائه... فإنه يبادر
إلى محاولة لإصلاح العالم⁽¹⁾.

من المفهوم أن الفاشلين ينزعون إلى تحميل العالم جريرة
فشلهم. إلا أنه من العجيب أن الناجحين، بدورهم، مهما
كان اعتزازهم بحصافتهم وخبرتهم وتوفيرهم، وبقية هذه
الخصال الحميدة، يؤمنون، في قرارة أنفسهم، أن نجاحهم
جاء نتيجة المصادفات والحظ السعيد. إن ثقة أكثر الناس
نجاحًا في أنفسهم ثقة ناقصة؛ لأنهم ليسوا متأكدين من أنهم
يعرفون كل العوامل التي كانت وراء نجاحهم.

(*) كان هنري ديفيد ثورو (1817 - 1862م) كاتبًا وفيلسوفًا أمريكيًا، وكانت
مقالاته عن البيئة وحمايتها رائدة في بابها ومهدت الطريق للاهتمام
المعاصر بالبيئة (الترجم).

(1) Henry David Thoreau, Walden, Modern Library Edition (New
York: Random House, 1937), P. 69.

يبدو العالم الخارجي، من وجهة نظر هؤلاء، آلة تدور على نحو يستحيل ضبطه أو توقعه، وما دامت هذه الآلة تدور في صالحهم فإنهم يتجنبون العبث بها. وهكذا نرى أن الرغبة في التغيير والرغبة في مقاومة التغيير تتبعان من المصدر نفسه: الإيمان بتأثير العوامل الخارجية.

3

إن عدم الرضا، في حد ذاته، لا يخلق بالضرورة رغبة في التغيير: لا بد من وجود عوامل أخرى قبل أن يتحول عدم الرضا إلى تدمر، وأحد هذه العوامل هو الإحساس بالقوة.

إن الذين يخافون محيطهم لا يفكرون في التغيير مهما كان وضعهم بأسوأ. عندما يكون نمط حياتنا مضطرباً واهياً إلى درجة تمنعنا من التحكم في ظروفنا المعيشية، فسبيلنا الاحتماء بما هو مألوف. إننا نقاوم شعورنا بالخوف بإخضاع وجودنا لروتين ثابت، ونوهم أنفسنا أننا نستطيع، بهذه الوسيلة، تجنب أي مفاجآت. وهكذا نجد الصيادين والبدو الرحل والمزارعين الذين يعتمدون على تقلبات الطقس، والفنانين الذين ينتظرون الإلهام، والرجل البدائي الذي يخشى محيطه، يخافون التغيير ويواجهون العالم، كما يواجهون قضاة يتحكمون في مصيرهم.

كما أن الفقراء فقراً مدقعاً يرهبون محيطهم، ولا تراودهم رغبة في التغيير. تبدو الحياة خطيرة عندما يتهددنا الجوع والبرد. من هنا نجد عند الفقراء نزعة محافظة بعمق النزعة المحافظة عند الأغنياء، وهذه النزعة لدى الطرفين عامل مهم في إبقاء الأوضاع القائمة.

إن الأشخاص الذين يندفعون لإحداث تغييرات واسعة يشعرون عادة، أنهم يمتلكون قوة لا تقهر، كان الجيل الذي صنع الثورة الفرنسية يؤمن إيماناً قاطعاً بقوة العقل البشري الخارقة، وبالأفاق غير المحدودة المفتوحة أمام الذكاء البشري. يقول دي توكوفيل^(*) عن هذه الحقبة: إن الإنسانية لم تشعر قبلها قطّ بهذا الاعتزاز بنفسها وهذه الثقة بقوتها. وجنباً إلى جنب مع هذه الثقة المفرطة بالنفس كان هناك ظمأً عالمي إلى التغيير سكن كل العقول بسهولة⁽¹⁾ ومن ناحية أخرى، كان لدى لينين^(**) والبلاشفة الذين انطلقوا بلا حذر يخلقون الفوضى

(*) كان أليكس دي توكوفيل (1805 - 1859م) مفكراً سياسياً ومؤرخاً فرنسياً، اشتهر

بكتابات العميقة عن الديمقراطية الأمريكية والثورة الفرنسية (المترجم).

(1) ALEXIS de Tocqueville, On the State of Society In France Before the Revolution of 1789 (London: John Murray, 1888), PP. 198- 199.

(**) كان فلاديمير لينين (-1870 1924م) زعيماً شيوعياً بارزاً، قاد ثورة أكتوبر

1919م في روسيا وأصبح أول رئيس للدولة الثورية في سنة 1922م، وتُعرف

نظرياته التي أسهمت في إثراء النظرية الماركسية باسم «اللينينية» (المترجم).

التي تستهدف إيجاد عالم جديد إيمان أعمى بقوة المذهب الماركسي. أمّا النازيون فلم يكن لديهم مذهب يماثل المذهب الماركسي قوة، ولكنهم آمنوا بقائد معصوم يقودهم إلى حياة جديدة. من المشكوك فيه أن تحقق النازية ما حققته من نجاح لولا الاعتقاد بأن الخطط العسكرية المبتكرة التي اتبعتها ألمانيا والدعاية الفاعلة جعلت ألمانيا قوة لا تقهر.

حتى الرغبة الواعية في التطور لا بد أن تكون مدعومة بالإيمان، الإيمان بطيبة الطبيعة البشرية والإيمان بقوة العلم المطلقة. وهذا النوع من الإيمان فيه شيء من التحدي وشيء من الهرطقة، شأنه شأن إيمان الذين يقول عنهم العهد القديم: «بنوا مدينة وصرحًا يصل إلى السماء، وتصوروا أنه لا شيء مما حلموا به يمكن أن يستعصي عليهم»⁽¹⁾.

4

قد يبدو، للوهلة الأولى أن امتلاك القوة سيؤدي، في حد ذاته، إلى موقف يتحدى العالم ويتطلع إلى التغيير، إلا أن الأمور لا تسير، بالضرورة، على هذا النحو. قد يكون القوي وديعًا وداعة الضعيف. ما يهم ليس امتلاك القوة، ولكن

(1) Genesis II: 4, 6.

الإيمان المطلق بالمستقبل. عندما يغيب هذا الإيمان تصبح القوة داعمة للأوضاع القائمة ومناهضة للتغيير. وعلى العكس، عندما يكون هناك أمل لا حدود له في المستقبل فإن الأمل، حتى عندما يفتقر إلى القوة، يمكن أن يقود إلى مغامرات يائسة. سبب ذلك أن المشحونين بالأمل يستمدون القوة من أغرب المصادر، من شعار أو كلمة. إن الأمل الفاعل المحرك لا بد أن يكون أملاً في المستقبل. وهكذا نجد أن المذهب الفاعل، بالإضافة إلى كونه مصدرًا للقوة، لا بد أن يدعي أنه يملك مفاتيح المستقبل.

إن الذين يحاولون تغيير أمة ما أو تغيير العالم لا يستطيعون تحقيق هدفهم بتوليد التذمر واستثماره، أو بإثبات أهمية التغييرات المنشودة وضرورتها، أو بإجبار الناس على تغيير أسلوب حياتهم. على الراغبين في التغيير أن يوقدوا الآمال الجامحة، وليس من المهم أن ترتبط هذه الآمال بجنة سماوية، أو بجنة على الأرض، أو أن تنصب على نهب ثروات هائلة من دول أخرى، أو على السيطرة على العالم. إذا نجح الشيوعيون في الفوز بأوروبا وجزء كبير من العالم، فلن يكون هذا لأنهم استطاعوا إشاعة التذمر والكرهية، ولكن لأنهم عرفوا كيف يشعلون في النفوس الآمال الجامحة.

5

إن الفارق بين المحافظين والراديكاليين هو في الأساس فارق بين مواقفهم من المستقبل، يدفعنا الخوف من المستقبل إلى أن نتمسك بالحاضر، بينما يجعلنا الأمل في المستقبل متحمسين للتغيير. كل من الغني والفقير، والقوي والضعيف، والناجح والفاشل، قد يكون خائفًا من المستقبل. عندما يبدو الحاضر في أعيننا مثاليًا، بحيث إن أقصى ما يمكن أن نتوقعه هو استمراره في المستقبل، فإن التغيير بالنسبة لنا لا يعني سوى تدهور الوضع. ولهذا نجد رجالًا حققوا الكثير من المنجزات، ورجالًا يعيشون حياة مليئة بنشطة يقفون، عادة، ضد أي تغيير جذري. والمحافظة التي تميز المرضى المقعدين وكبار السن تتبع بدورها من الخوف من المستقبل. يخشى هؤلاء أن يأتي المستقبل ومعه المزيد من علامات الضعف والوهن ويشعرون أن أي تغيير سوف يكون إلى الأسوأ. كما أن الفقراء فقراء مدقعًا لا يشعرون بأي أمل في المستقبل الذي يبدو كما لو كان فخًا منصوبًا أمامهم عليهم أن يتحاشوه. عند هؤلاء كلهم لا يعني التغيير سوى المتاعب.

إلا أن الصورة تختلف تمامًا عندما يدخلها الأمل. لا تهتم طبيعة الشخص الذي يحركه الأمل الجامح، قد يكون مثقفًا

متحمّساً، أو مزارعاً يتوق إلى المزيد من الأرض، أو نبيلاً أرستقراطياً، أو تاجراً أو صانعاً أو عاملاً بسيطاً. كل هؤلاء يتحدثون الحاضر، ويدمرونه عند الضرورة، ويخلقون العالم الجديد الذي يمكن أن يحقق آمالهم. وهكذا نجد أنه يمكن أن تكون هناك ثورات يقودها أغنياء، بالإضافة إلى ثورات يقودها فقراء بدأت في بريطانيا في القرنين السادس والسابع عشر ثورة مُلاك^(*) وكانت تستهدف تعزيز الملكيات الفردية وقصرها على ملاكها بدلاً من بقاء جزء منها مشاعاً كما كان عليه الوضع. نتيجة هذه الحركة أصبحت صناعة الصوف طريقاً إلى الرخاء، بينما أصبح الرعي أكثر جدوى من زرع المحاصيل. عندما قام الملاك بطرد المزارعين العاملين لديهم، وأغلقوا أراضيهم في وجوه العامة، أحدثوا تغييرات عميقة في نسيج البلاد الاقتصادي والاجتماعي. «كان اللوردات والنبلاء يهدمون النظام الاجتماعي القائم، ويزيلون قوانين وأعرافاً قديمة بالعنف حيناً، وبالضغط والتهديد أحياناً⁽¹⁾ كما قامت

(*) أدت هذه «الثورة» إلى تشريد مئات الآلاف من الفلاحين وحرمانهم مصدر دخلهم الوحيد، كما أدت إلى ارتقاء الملاك الزراعيين قمة الهرم الاقتصادي والسياسي، وبقيت آثارها مدة طويلة: في أواخر القرن التاسع عشر كان قرابة ألفي شخص يملكون نصف الأراضي الزراعية في إنجلترا وويلز (المترجم).

(1) Karl Polanyi, The Great Trans Formation (Ney York: Farrar And Rine Hart, INC, 1944), P.35.

في إنجلترا ثورة أغنياء ثانية مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وهي الثورة الصناعية^(*). ألهمت الاحتمالات المثيرة الجديدة التي كشفت عنها الميكنة عقول الصناع والتجار، فقادوا ثورة لا تختلف في مداها وعنقها عن أي ثورة دينية. استطاع هؤلاء المواطنون الأغنياء خلال مدة قصيرة نسبياً تغيير وجه الحياة في بريطانيا تغييراً كاملاً.

عندما تصطرع الآمال والأحلام الصاخبة في الشوارع، فعلى المواطنين المسالمين أن يدخلوا بيوتهم ويغلقوا أبوابهم ونوافذهم، حتى تنتهي الفورة. هناك فرق شاسع بين الآمال التي تبدو رقيقة نبيلة وبين الأفعال الفظيعة التي تتبعها. تخطر الآمال كفتيات رائعات الجمال يرقصن ويغنين إلا أنه سرعان ما يتبعهن جيش رهيب يحمل الموت والخراب.

6

لا بُدَّ لكي يندفع الرجال في مغامرة تستهدف تغييراً شاملاً من توفر عدة شروط. لا بد أن يشعروا بالتذمّر من غير

(*) بدأت الثورة الصناعية بميكنة صناعة النسيج، ثم انتقلت إلى صناعة الحديد، وقادت إلى التوسع في استخدام الطاقة البخارية وانتقلت من إنجلترا إلى بقية أنحاء العالم الغربي، ثم إلى بقية أنحاء العالم، حيث اتخذت اسم «التصنيع» (الترجم).

أن يكونوا فقراء فقراً مدقعاً. ويجب أن يكون لديهم الشعور بأنهم عبر اعتناق العقيدة الصحيحة أو اتباع الزعيم الملهم، أو اعتناق أساليب جديدة في العمل الثوري، سيصبحون قوة لا تقهر. بالإضافة إلى ذلك كله، يجب أن تكون لديهم تطلعات جامحة إلى المنجزات التي ستجيء مع المستقبل. وفي النهاية، يجب أن يكونوا جاهلين جهلاً تاماً بالعقبات التي ستعترض طريقهم. لم يكن لدى الرجال الذين أشعلوا الثورة الفرنسية أي قدر من الخبرة السياسية. والشيء نفسه يصدق على البلاشفة والنازيين والثوار في آسيا. أما الرجال المجربون ذوو الخبرة فيأتي دورهم في مرحلة لاحقة: لا ينضم هؤلاء إلى الحركة إلا بعد التحقق من نجاحها. ولعل خبرة المواطنين الإنجليز السياسية هي التي تجعلهم بمنأى عن الحركات الثورية.

